الخُلق

نقلت النشرة الاسبوعيّة الغراء المقالة التالية فادرجناها وانبعناها بما يقتضيهِ المقام

"جاء في كتاب تهذيب الاخلاق لابن مسكويه ما نصُّهُ : الخلق حال للنفس داعية لها الى افعالها من غير فكر ولا رويّة وهذه الحال تنقسم الى قسمين . منها ما يكون طبيعيًّا من اصل المزاج كالانسان الذي يحركهُ ادنى شيء نحو غضب ويهيج من اقل سبب وكالانسان الذي يجبن من ايسر شيء كالذي يفزع من ادنى صوت يطرق سمعهُ وكالذي يضحك ضحكًا مفرطًا من ادنى شيء يعجبهُ وكالذي يغتمُّ ويحزن من ايسر شيء يناله . ومنها ما يكون مستفادًا بالعادة والتدرب وربما كان مبدأهُ بالرويّة والفكر ثم يستمر عليهِ اولاً فاولاً حتّى يصير ملكةً وخلقًا . ولهذا اختلف القدماء في الخلق . فقال بعضهم الخلق غير النفس غير الناطقة . وقال بعضهم قد يكون للنفس الناطقة فيهِ حظٌّ . ثم اختلف الناس ايضًا اختلافًا ثانيًا فقال بعضهم من كان لهُ خلقٌ طبيعيٌّ لم ينتقل عنهُ . وقال آخرون ليس شيءٌ من الاخلاق طبيعيًّا للانسان ولا نقول انهُ غير طبيعيّ وذلك انّا مطبوعون على قبول الخُلق بل ننتقل بالتأديب والمواعظ اما سريعًا واما بطيئًا وهذا الرأي الاخير هو الذي نختارهُ لانّا نشاهدهُ عيانًا ولأن الرأي الاول يؤدي الى ابطال قوة التمييز والعقل والى رفض السياسات كلها وترك الناس سُدًى مهملين والى ترك الاحداث والصبيان على ما يتفق ان يكونوا عليهِ بغير سياسة ولا تعليم وهذا ظاهر الشناعة جدًّا . واما الرواقيّون فظنّوا ان الناس كلهم يُخلَقون اخيارًا بالطبع ثم بعد ذلك يصيرون اشرارًا بمجالسة اهل الشر والميل الى الشهوات الدنيئة التي لا تنفع . فينهمك فيها ثم يتوصل اليها من كل وجه ولا ينكر في الحسن منها والقبيح . واما قوم آخرون كانوا قبل هولاء فانهم ظنوا ان الناس خُلقوا من الطينة السفلى وهي كدر العالم فهم لاجل ذلك اشرار بالطبع وانما يصيرون اخيارًا بالتأديب والتعليم الاّ ان فيهم من هو في غاية الشرّ لا يصلحهُ التأديب وفيهم من ليس هو في غاية الشر فيمكن ان ينتقل من الشرّ الى الخير بالتأديب من الصبا ثم بمجالسة الاخيار واهل الفضل . فاما جالينوس فانهُ رأى ان الناس فيهم من هو خيّر بالطبع وفيهم من هو شرير بالطبع وفيهم من هو متوسط بين هذين ثم افسد المذهبين الاولين اللذين ذكرناهما . اما الاول فبأن قال ان كان كل الناس اخيارًا بالطبع وانما ينتقلون الى الشر بالتعليم فمن الضرورة ان يكون تعلّمهم الشرور اما من انفسهم واما من غيرهم فان تعلموا من غيرهم فان المعلمين الذين علموهم الشرّ اشرار بالطبع فليس الناس اذًا

قبلهم اخيارًا بالطبع وان كانوا تعلموهُ من انفسهم فاما ان يكون فيهم قوة يشتاقون بها الى الشر فقط فهم اذًا اشرار بالطبع واما ان يكون فيهم مع هذه القوة التي تشتاق الى الشر قوة اخرى تشتاق الى الخير الاَّ ان القوة التي تشتاق الى الشر غالبة قاهرة للتي تشتاق الى الخير وعلى هذا ايضًا يكونون اشرارًا بالطبع . واما الرأي الثاني فانهُ افسدهُ بمثل هذه الحجة وذلك انهُ قال ان كان كل الناس اشرارًا بالطبع فاما ان يكونوا تعلَّموا الخير من غيرهم او من انفسهم ونعيد الكلام الاول بعينهِ . ولما افسد هذين المذهبين صحَّ رأي نفسهِ من الامور البيِّنة الظاهرة . وذلك انهُ ظاهر جدًّا ان من الناس من هو خيِّر بالطبع وهم قليلون وليس ينتقل هؤلاء الى الشرّ ومنهم من هو شرير بالطبع وهم كثيرون وليس ينتقل هولاء الى الخير . ومنهم من هو متوسط بين هذين وهؤلاء قد ينتقلون بمصاحبة الاخيار ومواعظهم الى الخير وقد ينتقلون بمقاربة اهل الشر واغوائهم الى الشرّ . واما ارسطوطاليس فقد بيَّن في كتاب الاخلاق وفي كتاب المقولات ايضًا ان الشرير قد ينتقل بالتأديب الى الخير ولكن ليس على الاطلاق لانهُ يرى ان تكرير المواعظ والتأديب وأخذ الناس بالسياسات الجيدة الفاضلة لا بدَّ ان يؤثر ضروب التأثير في ضروب الناس . فمنهم من يقبل التأديب ويتحرَّك الى الفضيلة بسرعة ومنهم من يقبلهُ ويتحرك الى الفضيلة بابطاء . ونحن نؤلف من هذا قياسًا وهو هذا كل خلق يمكن تغييرهُ ولا شيء مما يمكن تغييرهُ بالطبع فاذًا لا خلق ولا واحد منهُ بالطبع والمقدمتان صحيحتان والقياس منتج في الضرب الثاني من الشكل الاول . اما تصحيح المقدمة الاولى وهي ان كل خلق يمكن تغييرهُ فقد اوضحناهُ وهو بيِّن من العيان ومما استدللنا بهِ من وجوب التأديب ونفعهِ وتأثيرهِ في الاحداث والصبيان ومن الشرائع الصادقة التي هي سياسة الله لخلقهِ . واما تصحيح المقدمة الثانية وهي انهُ لا شيء مما يمكن تغييرهُ هو بالطبع فهو ظاهر ايضًا وذلك انَّا لا نروم تغيير شيء ما هو بالطبع ابدًا فان احدًا لا يروم ان يغيِّر حركة النار التي الى فوق بأن يعوِّدها الحركة الى اسفل ولا ان يعوِّد الحجر حركة العلو يروم بذلك ان يغير حركة الطبيعة التي الى اسفل . ولو رام ما صحَّ لهُ تغيُّر شيء من هذا ولا ما يجري مجراهُ اعني الامور التي هي بالطبع . فقد صحَّت المقدمتان وصحَّ التأليف في الشكل الاول وهو الضرب الثاني وصار برهانًا " — انتهى ما جاء في النشرة

هذا ولا اعسر من تعريف احوال النفس كالخُلق والطبع ونحوهما اذ هي احوال يختلف الناس اختلافًا عظيمًا في كيفيتها وحقيقتها وحقيقة ما تكون فيهِ وما تنأتى عنهُ . ولذلك يتعذَّر

ان نعرّف تعريفًا جامعًا مانعًا يسلّم به الناس على اختلاف آرائهم ومذاهبهم . على اننا لسنا خيرنا لاختارنا ان نخصّ الخُلق بالقسم الثاني من القسمين اللذين ذكرهما ابن مسكويه آنفًا وان نعرّف الطبع بالقسم الاول منهما وعليه نقول ان الطبع حال للنفس من اصل المزاج كالغضب والجبن والخوف داعية لها الى افعالها من غير فكر ولا روية . والخلق حال للنفس تستفيدها بالعادة والتدرّب ثم تستمرّ عليها حتّى تصير ملكةً فيها فتصدر بها افعالها بسهولة من غير تقدّم وفكر وروية

ثم ان من يقابل اقوال المتقدمين باقوال المتأخرين يجد ان ما اشكل امرهُ على المتقدمين من حيث الطبعي وغير الطبعي في الانسان قد عللهُ قوم من المتأخرين تعليلاً لطيفًا بموجب ناموس النشوء والارتقاء فالمتقدمون ذهبوا الى ان كلّ ما كان بالطبع لا يمكن تغييرهُ . وقد اوقع هذا المذهب بعضهم في الحيرة وحملهم على التطرّف في الحكم فقال قوم ان من كان لهُ خلقٌ طبيعيٌّ لم ينتقل عنهُ اذ الطبيعي لا يتغيّر و بناء عليهِ قطعوا الامل من اصلاح بعض الاخلاق الفاسدة بجهة انها طبيعية لا تتغيّر . وقال آخرون انهُ ليس شيءٌ من الاخلاق طبيعيًّا للانسان اذ التأديب والمواعظ تؤثر في اخلاقهِ والطبيعي لا يتغير

واما المتأخرون من اتباع مذهب النشوء في الاحياء فيقولون ان الطبعي فيها نسبيٌّ اذ ما يكون طبيعيًّا بالنسبة الى الفرد بمعنى انهُ يولد معهُ ولا ينتقل عنهُ قد يكون غير طبعي بالنسبة الى النوع بمعنى انهُ كان اكتسابيًّا في افرادهِ الاولى وكذلك ما يكون طبيعيًّا بالنسبة الى النوع قد يكون مستفادًا ومكتسبًا بالنسبة الى الجنس . فطباع الناس واخلاقهم لم يكن آباؤهم الاقدمون منطورين عليها ولم تكن تولد فيهم كما تولد في الناس اليوم بل انهم اكتسبوها بالعادة والتدرّب ونحوهما حتّى رسخت فيهم ثم توارثها الخلف عن السلف وانتقل قبولها من الاجداد الى الاحفاد وازداد رسوخًا في النفس على توالي الاعقاب ازديادًا متفاوتًا بين الافراد حتّى صار الناس يولدون وهي على ما نشاهدهُ فيهم من القوة والضعف ونحوهما

فالاخلاق الشديدة الرسوخ في النفس هي التي لا تتأثّر بالعوامل من تأديب ووعظ ونحوهما الاّ بطيئًا . والاخلاق الضعيفة الرسوخ هي التي تتأثر سريعًا . وعليهِ يعسر تعويد كريم كحاتم للبخل اكثر مما يعسر تعويد المعتدل الكرم لهُ اذ الكرم كان ارسخ في نفس حاتم مما كان في الذين حولهُ

وعلى ما تقدم يتضح ان الناس يولدون اليوم وفيهم الاستعداد المتفاوت لقبول الاخلاق التي يربّون عليها فيكتسبونها بالعادة والتدرّب حتّى تصير ملكات فيهم

وعلى ذلك ايضًا لا يبقى وجهٌ للمسألة التي اشكلت على فلاسفة القدماء ونعني بها ما اذا كان الناس اخبارًا او اشرارًا بالطبع او كان بعضهم اخيارًا وبعضهم اشرارًا بالطبع كما بنحج بامعان النظر وشرحهُ يطول فلا نتعرّض لهُ

وعلى ما تقدم ايضًا يثبت ان التأديب والتعليم والوعظ وحسن السياسة تلطف الطباع وتقوم الاخلاق وانهُ يمكن بها اضعاف الاخلاق الشريرة وتقوية الاخلاق الصالحة وتأصيل الفضائل في النفوس واستئصال الرذائل منها

لغة الكلاب والطيور

فقالوا لقد هرّت بليل كلابنا فقلنا أذئبٌ عسّ ام عسّ فرعلُ
فلم يكُ الاّ نبأةٌ ثم هوّمت فقلنا قطاةٌ ربع ام ربع اجدلُ

قلنا في مقالة سابقة انهُ لو كان النطق مقدورًا للحيوان الاعجم لتعلّم النطقَ من الانسان بعد ان رافقهُ وساكنهُ الوفًا من السنين . ومعلوم ان الكلب ينبح ويهرُّ وهو يريد بالنباح شيئًا وبالهرير شيئًا آخر حتّى ان عرب البادية يعلمون ذلك كما قال الشنفري في البيتين الذين اوردناهما في صدر هذه المقالة وهما من لاميتهِ المشهورة بلامية العرب فقد عنى بهما انهُ بات قومًا وكان من الخفّة والمهارة على جانب عظيم فهرّت الكلاب عليهِ قليلاً ثم نامت كانها لم تشعر بهِ الاّ شعورًا خفيفًا فقال اصحابها لما هرّت ان ذئبًا او ضبعًا طافت بحلتهم ثم لما نامت حالاً قالوا بل ربعت قطاة او ربع صقر الاّ ان ذلك لا يرد على القول المتقدم وهو ان النطق غير مقدور للحيوان الاعجم لانهُ ليس نطقًا صريحًا

وقد اطلعنا في هذه الاثناء على مقالة ضافية الذيول للموسيو ده لاكاز دوتيه احد اعضاء الانستيتو الفرنسوي ذهب فيها الى ان تغير اصوات الكلاب وقت نباحها وهريرها والطيور وقت صياحها ونقريدها يدلُّ دلالةً واضحة على ان لها لغة تخاطب بها واورد على ذلك نوادر كثيرة شاهدها بنفسهِ او نقلها عن الثقات فلخصناها عنهُ تاركين الحكم فيها لحضرات القراء

قال ان الكلب اذا قابل صاحبهُ اظهر لهُ ارتياحهُ وسرورهُ باصوات يختلف نغمها باختلاف شدة فرحهِ وما من احد يخفى عليهِ التمييز بين هذه الاصوات واصوات الكلب اذا كان ينبح على متسوّل او اذا كان يطارد كلبًا آخر . واذا سمع الكلب نباح كلب آخر ليلاً في بلاد الريف اجابهُ اولاً بالهرير فيهر مرتين او ثلاثًا ويصغي الى صوتهِ ويهرُّ ايضًا او ينبح